هل بحثت سارة في هذا الموضوع بحث الفلاسفة؟ هل قرأته في كتابٍ من كتب الصور المتحركة؟ يجوز! ولكن فطنتها وحسن روايتها لما قرأت لا تزالان عجيبتين بين شبيهاتها من الفتيات.

وتمييزها لملامح الرجولة ومظاهرها تمييز لا يخطئ؛ لأنه أشبه بالغريزة التي لَمْ تعرف غير الصواب، لأنها لَمْ تعرف غير صوابٍ واحدٍ، كصواب النحلة في بناء الخلايا.

فالرجال الذين يشبهون النساء لا يستحقون منها حتى نظرة الزراية؛ لأنها لا تشعر لهم بوجود، وما عدا هؤلاء من رجال فهم نماذج عدة تبلغ المئات ولكنهم مشمولون جميعًا في رجولةٍ واحدةٍ خلاصتها القوة والثقة والبروز، والطغيان القابل للرحمة والحنان، وقبس من أريحية الخيال، ونفحة من حماسة الروح تحسبان في الزينة عرضًا ولا تضمنان الرجحان في الميزان.

ولهذا تضل بعض الطريق الذي تسلكه مع مَن تهواه ولو سلكته مرات في النهار؛ لأنها تلقي كل اعتمادها على صاحبها حتى لتكاد تنظر بعينيه وتمشي بقديمه، وأبغض مَن تبغض — وهي قارئة حصيفة — أولئك النسوة الثائرات على الرجال المطالبات بما يسمينه حقوق الحرية، فهي تقول إنها لو سُئِلَت أن تكون رجلًا ما قبلت، وأنها لو كانت تثور لثارت على الرجال لأنهم يستمعون إلى هذا الهراء.

ومن لوازمها التي لا تفارقها أنها ما حضرت قط رواية فيها نزاع بين رجلٍ وامرأة وعاشقٍ وعاشقة إلا كان عطفها في جانب الرجل وإن غدر وإن خان، ويشق عليها منظر العاشق المولَه المغموم فتهتف من قلبها لا من لسانها وحده: ما من امرأةٍ تستحق هذا العذاب!

تحب التدليل كما تحبه كل بنت من بنات حواء، ولكنها تكره التدليل السخي الفيَّاض كما تكره التدليل المعسول الناصع الحلاوة، وإنما تحب أن يقطر لها التدليل تقطيرًا، وأن يُشَاب أبدًا ببعض التوابل والأفاويه.

سألت صديقها وقد صفت واستسلمت لعطفه عليها: أتحزن عليَّ إذا مت؟

فلم يدرِ كيف يجيبها، ولكنه قال: هذا سؤال سابق لأوانه يا بنية.

قالت: ستبكي ولا شك لا أسألك في ذلك … ولكن كم عَبرة يا ترى تميزني بها على مَن بكيتهم؟

قال وهو لا يُظهِر المزح ولا يحاول أن يكتمه: أراجع ما عندي من «رصيد» العَبرات وأجيبكِ قبل الوقت المناسب بقليل!